نحو لغة عربية واحدة

بقلم محمد محمود عبد الرازق

مشكلة الفصحى والعامية من اعقد المشاكل التي تواجه الفنان العربي المعاصر ، واذا كانت قضية « الازدواج اللغوي » هي قضية كل لغة، فانها لا توجد في لغة ما بالتلازم والتشابك الظاهر حاليا بالنسبة للغة العربية ، ومغالط من يسمح لنفسه بمحاولة المقارنة بينها وبين اي لغة كائنة من هذه الناحية . فعندنا دول ودويلات عربية كثيرة ، لكل دولة أو دويلة لهجتهاالعامية الرئيسية ، وفي كل دولة او دويلة اكثر من لهجة واحدة ..ففي مصر ، فضلا عن لهجة القاهرة ، توجد لهجات عدة للصعيد والوجه البحري والصحراء الغربية و... ولهجات اعرا بالواحات تختلف عن لهجات اعراب السلوم أو محافظة الشرقية مثلا . وبعملية حسابية بسيطة ، بضرب عدد الدول والدويلات في عدد اللهجات ، يكون لدينا اكثر من خمسين لهجة ، وهو عدد لا نحسد عليه ، بل واحمله مسئوليةازمة التعبير الفني عندنا ، وبعضا من ازمة الفنان وقلقه ، فهل تنطبق هذه الحالة على بريطانيا او فرنسا ؟ . اذا قلنا ان هناك لهجة اسكتلندية تبعد كل البعد عن لهجة انجلترا وويلز ، واذا قلنا ان لهجة زارعي وعاصري العنب بشمال فرنسا تختلف كل الاختلاف عن لهجة اهل باريس او مرسيليا . فهل يصل تعدد اللهجات في هاتين اللغتين ــ الانجليزية والفرنسية ــ الى خمسين لهجة ؟! !.

واذا كانت الامهات يرضعن اطفالهن العامية ، ثم يتعلمون الفصحى وقواعدها بالمدارس ، عرفنا لماذا كانت العامية لغة الانفعال ، والفصحى لغة المنطق . والعربية بطبيعتها لغة الحكمة ، وينسبون الى نابليون ــ ويا كثرة ما نسب الى نابليون ــانهقال : اذا اردت العاطفة فتكلم الفرنسية ، واذا اردت الشجاعة فتكلم التركية ، اما اذا اردت الحكمة فتكلم العربية . » ونرى فيكل هذا تبريرا للحيرة التي تتملك فنانينا عند محاولة التعبير عن انفعالاتهم وعواطفهم ، الفنان عندنا ينفعل بالعامية ، ثم ينقل انفعاله على الورق بالفصحى ، وفيعملية النقل هذه تضيع زبد الانفعال ، وكثيرة تلك المصطلحات العامية التي تموت بنقلها للفصحى ، او لا يمكن نقلها دون التضحية بالصدق اعلى الصدق . ولقد قال غاندي لبعض اصدقاء نهرو « أن نهرو يحلم بالانجليزية » . وكان غاندي يقصد بهذه العبارة مداعبة نهرو لتمكنه الفائق من اسرار اللغة الانجليزية . لكنه كشف في نفس الوقت ، عن سر عظمة نهرو البلاغية ، سر الصدق الذي تمتاز به كتاباته ، فلقد اصبحت الانجليزية لغته التي ليس له الاها ، بها يحلم ، بها ينفعل ، وبها يعبر عن انفعالاته .ولمتعد للغتهالاصلية اي تأثير عليه ، فاجاد ، واصبح صاحب اسلوب متميز في اداب اللغة الانجليزية . وكذلك وضع غاندي بهذه العبارة قاعدة عامة لكافة الكتاب الذين يسعون للصدق والاخلاص في التعبير : ان اللغة التي تخوض بها تجارب حياتك ، هي لغة حياتك ، اللغةالتي يتحتم عليك التعبير بها .. نقل خلجاتك عبر ذبذباتها .. فهل يستطيع الفنا نالعربي اتباع هذه القاعدة ؟ .

ان الفنان الحديث فنان بلا جمهور .. وان كان له في خير الاحوال عدد يقرأه في عدة بلدان، فهو يسعى قدر الطاقة لتوسيع دائرة قرائه ، وفي الكتابة بالعامية تضييق بلا شك لهذه الدائرة،لانك لا تخاطب بها اكثر من ٥٠/١ من الجمهور العربي ، ٢ بالمئة من دائرتك القومية . قال احسان عبد القدوس في مقدمة الطبعة الثانية لقصة انا حرة « لقد قرأت اثناء كتابتي للقصة ، قصة عراقية باللغة العامية .. ولم افهم منها شيئا .. وخيل الي ان قراء العراق لن يفهموا من قصتي شيئا اذا كتبت حوارهاباللغةالمصرية العامية !! » وان كان احسان عبد القدوس يفضل العامية لحوار اغلب قصصه ، وخاصة الطويلة ، الان . فان هذه الفقرة ستظل دائما شهادة حية لحيرة فنان يتوق الى الجمهور الكبير . فما بالكوانتقرأ لا لانك تكتب بلغة قرائك فقط ، بل لانهم يستريحون اليك ، ووسائل الراحة هذه كثيرة ، ليس اقلها الاتجاه الفكري ، والاسلوب بسلطانه العظيم . ولقد صدق جورج ديهامل حين قا ل« نحن لا نقرأ الكثير من المؤلفين لا لشيء الا لان موسيقاهم لا تتفق وموسيقانا » .

ومن هنا تنبع ازمة الفنان العربي الخاصة ، ويبين مدى قلقه بتركة خرافية من اللهجات الاقليمية التي يقف امامها معقود اللسان ، مشتت الوجدان .

انا لا يهمنيباياًلغة تكتب .. ولا اي لغة تسود ، فالمهم هو التعبير الصادق الامين ، لكن تعدداللهجات تمزيق لجسد الوطن العربي الكبير ، وكذلك فان كانت لبعض اللهجات قواعد مميزة تستطيع مع شيء من التطور ان تتحول بها من العالم المنطلق الى النطاق المنظم ، فهناك لهجات عشوائية همجية ، لا تخضع لقاعدة ، ولا ترضخ لقانون . وايضا .. فان حكاية انقلاب هذهاللهجات الى لغات مستقلة ، حكاية قديمة ومستحيلة في نفس الوقت ، مستحيل ان يوجد عندنا لغات بعدد اللهجات ، لغات سامية وعراقية وجزائرية ومصرية و ... فان ظروف انبثاق اللغات الرومانية عن اللغة اللاتينية ــ هذا المثل الواقعي الشهير ــ تختلف عن ظروفنا الحديثة ، وهناك عوامل كثيرة تستبعد تفتت العربية الى لغات متناثرة . ليس اهمها ــ كما يقولون ــ فصحانية القرآن . فبالامكان ان يظل القرآن على فصحاه ، قرآنا عربيا غير ذي عوج ، كما انزله الله وهو حافظه (انا نزلنا الذكر وانا له لحافظون) ، دون ان يحتم ذلك محافظتناعلى الفصحى او العربية اصلا ، كما هو الحال لمسلمي الهند وباكستان وتركيا وايران ، حيث ظل القرآن الكريم على فصحاه التي يقرأ بها في الصلاة ، ويرتل في المساجد والدور . وكما هو شان اقباطنا الذين يقرأون في صلاتهم بعض الايات باللغة القبطية ، ولغة حيانهم العربية . فان كان الايمان ، وما يستتبعه من محافظة على لغة دستوره ، منا هم العوامل في القديم ، فهو ليس اهمها الان ، فمن المستطاع المحافظة على ديننا وقوميتنا ولغة كتابنا المقدسدون ان نمنع من التعبير عن عواطفنا وانفعالاتنا بلغة حياتنا ، اما اهم عوامل استبعاد التفتت في نظرنا فهوتغير الظروف الحياتية في القرنالعشرين، عن طريق الاتصال المباشر وغير المباشر بكافة المجموعة العربية في ساعات بالطائرة ، وفي لحظات بالاذاعة والتلفزيون ، وليس بكثير على عالم يتجه الى العالمية بخطى سريعة ، ان تكون له لغة واحدة للتفاهم. انا لا احلق في الخيالفالكلمةالتي قالها ايكناتوس في مدينة روما ، والتي من اجلها امر السلطان دوميتان بنفي جميع الفلاسفة لا اكناتوس وحده من المدينة ، هذه الكلمة ذاتها اصبحت حقيقة اليوم وحلم السياسة وامل الاقتصاد ، وكل النفوس الخيرة تردد مع ايكناتوس« انا مواطن في هذا العالم ، والعالم كله وطني » وستتحقق هذه العالمية يوما ، في السياسة والاقتصاد ، كما تحققت في ضمير النفوس الطيبة ، وسيلزم للتجارة والادارة لغة واحدة ، لغة تقوى على النطق بها جميع

الالسنة ، قل بعد الف سنة .. قل بعد مليون ! . لكن العالم في طريقه للحكومة العالمية باقرب مما نتصور . اويسير العالم الى التجمع ونزوي نحن في جحور من التفتت !! . هذه هي كنه الاستحالة التي نقصدها، فمستحيل ان نعود الى الجحور او نتبعثر فوق الرمال . اننا ،وبحتمية تاريخية ، الى التجمع نسير ،ومن الناحية السياسية اعتبر التكتل في اطار القوميات بداية العالمية ، قد يخالفني خلق كثير ، ومهما بعدت شقة الخلاف بيننا ، فاظنهم لن يخالفونا في ان التكتل في اطر القوميات يقرب بين لهجات الامة الواحدة ، الامر الذي يفرضه الاتصال بوسائله المتعددة . ونحن نرى الان المدن العربية الكبرى تتقارب لهجاتها باطراد حتى اصبح الشخص القاهري العادي يفهم لغة الشاميين اكثر من فهمه لغة بعض محافظات الصعيد ، ومرجع هذا للاتصال الدائم بين الاقليمين براوبحرا على مدى العصور . وانني لارى تشابها كبيرا بين لهجة اهل دمياط ولهجة اهل الشام وخاصة الفلسطينيين ، بل وتشابها ايضا في الذوق والحس وبعض العادات والاطعمة ، ولن تكون المراكب الشراعية الصغيرة التي كانت تحمل الصيادين والتجار وطلاب العلم من موانىء فلسطين وسوريا الى دمياط والاسكندرية باقوى تأثيرا من الراديو الذي يحملنا معه الى افاق بعيدة، لم نكن بالغيها ولو بشق الانفس .

النصر اذن للغة عربية واحدة .. وها انت ترى اننا نتحدث بتعبير « النصر » رغم قولنا انه لا يهمنا اي لغة تسود، فلماذا هذا الحماس ؟ . الحماس هنا ليس للغة، وانما لوحدة التفاهم ، واي نصر اكبر واسمى من ان يعبر المصري عن انفعالاته بكلمات تنتقل عبر الاثير الى مائة مليون من البشر ، فيتشربونها ، وينفعلون بها مثل انفعاله !. ومن حسن الحظ ان قامت محاولات عدة للتقريب بين العامية والفصحى، واشهر هذه المحاولات تجربة الحكيم في مسرحية « الصفقة » التي كتب حوارها بالفاظ منتقاة تقرأ بالعامية والفصحى معا . ورغم ما يبدو عند النظرة الاولى من ترفية هذه البدعة ، التي ربما ابتدعها الحكيم لمجرد ابتكار اسلوب طريف ، وطريقة جديدة ، لا لحل المشكلة . ورغم هذا فاننا نستطيع الوصول معها الى نتائج هامة تحبط الظن بعدم حلها للمشكلة لانها لا تذيب احدى اللغتين في الاخرى وانما تؤكد انفصالهما ، وهذا هو عيبها الاول على ما يبدو ، والفاصل بينهما يتضح بالقراءة التي تخلق من النص بالنص العامية او الفصحى .ثم هي ان قاربت بينهما باختيار اللفظ المشترك ، فانها تقارب بين عامية واحدة ، هي العامية المصرية ،وبين الفصحى ، وفي ذلك اجحاف بحق العاميات الاخرى ، وهذا هو العيب الثاني . والذين تتراءى لهم هذه العيوب لم يتعمقوا حقيقية التجربة، بل تناولوها بنظرة قشرية عجلى. ولكي نصل الى هذه الحقيقة علينا ان نتساءل : اي عامية يريدنا توفيق الحكيم ان نكتب بها حوارايقرأ بالفصحى ؟ . وبتركيب اخر للسؤال : من اي عامية نختار فصحانا ؟ . هل نفرض على جميع العرب لهجة واحدة ؟ .الجواب بالنفي ، لان في هذا الفرض تضخيما للمشكلة لا حل لها .لم يبق اذن الا ان يختار كل فنان فصحاه من عاميته ، شامية كانت ام عراقية ام جزائرية ... وسيبتسم القشريون في مكر ساذج ويقولون : اين الحل وقد اكدتم التعدد ؟ نحن لا نؤكد التعدد بل نذيبه .. غريبة ؟؟! .. اذن فاسمعوا . الن توجد عندنا عدة عاميات ؟ . نعم ..ولكن هذه العاميات جميعا تنضح من اناء واحد ، تقرأ بالفصحى . وفي ذلك نصر مؤقت . ويأتي النصر المؤزر بمضي الوقت ، اي بعد ان تتجمع لدينا حصيلة ضخمة من الفاظ الفصحى التقطناها من كافة اللهجات وعرضناها على نطاق أوسع من نطاقها المحلي . وعندها سندخل مرحلة جديدة ، مرحلة فرض اللفظ نفسه بنفسه على مختلف الالسنة والاذواق ، لينزوي غيره من الالفاظ المشابهة المتأبية على الالسنة .. كل الالسنة ، خجلا في عالم النسيان . ولن يكون هذا اللفظ اي لفظ ، بل هو لفظ لديه امكانيات الجبر وقوته ، فلا بد ان تقوى جميع الالسنة على اخراجه ، و لابد ان تجد في حروفه من الموسيقى العذبة ما تنشده. لفظ فني .. حي .. واضح .. اصدق من اقرانه تعبيرا واشد تحديدا للدلالة . ومن هذه الالفاظ الجديدة الحية الواضحة الفنية ، تتكون لغتنا الجديدة الحية الواضحة الموحدة. ليست لغتنا العامية ، وليست فصحى القواميس ، وهي لغتنا العامية وفصحى القواميس بعد التطويع والتنسيق وابعاد الشوائب بتخليصها من وحشي الالفاظ وغريبها .

والواقع ان تجربة توفيق الحكيم تجربة صعبة تحتاج الى تمكن فائق من الفصحى ، ودراية كبيرة بخبايا العامية . ولكنا آثرنا الحديث عنها لانها التجربة العملية الوحيدة التي صاغها صاحبها في عمل فني كامل . وهناك مقترحات كثيرة ملئت بها اسطر الكتب وادراج المجمع اللغوي ، وبمكنه هذه المقترحات كلها والتجارب ان تتكاتف نحو الغرض، فلها مقترحات مثرية ذكية منها ما جاء بتقرير لجنة العامية والفصحى الذي عرضه محمد فريد ابو حديد على مجمع اللغة العربية عام ١٩٤٨ ويتلخص في ضرورة القيام بعملية مسح شامل للغة العربية وذلك لدراسة ما تستعمله الاقطار العربية في شرق العالم وغربه لامكان معرفة الالفاظ التي تستعملها الشعوب العربية جميعا او تستعملها كثرة من تلك الشعوب ، ولا ذكر لها في كتب اللغة ((وهذه تدعو الضرورة الى ادخالها في اللغة لان شيوعهافي الاقطار العربية قرينة على انها عربية الاصل وان اغفلتها كتب اللغة)) فاصحاب القواميس بشر يخطئون ويصيبون وقد يفوتهم جميعا الاحاطة بما استعمله العرب في حياتهم . اما اذا لم يكن للفظ هذا الانتشار وكان في الفصحى ما يسهل على الالسنة في الاستعمال منه عملنا على احياء ذلك الفصيح وامانة الدخيل، واذا كان لا يوجد في الفصحى ما يغني عنه ادخلناه في اللغة ما دام قد صقل في الاستعمال واصبح في صورة عربية مستساغة . مقترحات كثيرة تقع على كاهلنا امانة بدء تنفيذها ، وبقوة ارادة الانسان .. هذه القوة المارده الجبارة .. علينا ان نبدأ العمل ، فلقد تعلم الانسان الكلام من انين وعويل الرياح الثلجية الوحشي ، ومن الرقص البسيط لامواج البحر ذات النوائب . ومن الزلازل ، ومن الزوابع ،تعلم الانسان – كما يقول جوركي – النطق باروع واعذب الكلمات . واذا عجلنا بخوض تجربتنا قمنا بعمل انساني خالد ، ومكنا اللاحقين من التعبير بلغة حياتهم بلا اضطراب أو ضيق ، واذا تقاعسنا وقطعنا الصلة بيننا وبين لحظة الانتصار فنحن الخاسرون . ان امامنا عملا بطوليا ضخما لا يتطلب سوى الاخلاص والعزم .. ففي نفس الوقت الذي نخوض فيه تجربة الاسلوب الجديد ، علينا ان نقوم بثورةجبارة لمحو الامية في البلاد العربية جمعاء .. يجب أن يوضع مخطط رسمي مدروس للاحتفال ((بوفاة)) اخر امي عندنا خلال مدةمحددة ، حتى ولو حرمنا قبول الطالب بالجامعة الا بعد تعليمه القراءة والكتابة لعدد معين من الاميين .. حتى ولو ضحينا بغلق الجامعات والمدارس عاما بعد عام وتجنيد طلبتها للمساهمة في هذا العمل القومي المجيد . فان غلق الجامعات عاما ، خير من غلق العقول اعواما.انتعلم العامل والفلاح معناه التقاؤنا بجمهورنا الحقيقي الذي نفتقده ، فنصبح كتابا لنا جمهور ، بعد ان كنا نعتمد على بضعة الاف من القراءفي احسن الظروف تفاؤلا ، ثم ان هذه الالاف ليست في الغالب الجمهور الحقيقي الذي ننشد مخاطبته . وبغير هذا الجمهور سيواجهنا مصير مظلم .. نفس مصير قبيلةالاتسوري الذي تحدث عنها تولستوي مع جوركي ، وهي القبيلة التي قيل لاحد العلماء عنها ((كل الاتسوريين هلكوا ، ولكن لا يزال ثمة ببغاء يعرف بعض الكلمات عن لغتهم)). ان انفصال لغتنا عن لغة العمال والفلاحين كارثة عظمى ، حكم بالموت على اعمال كتابنا ومفكرينا بعد سنين تطول او تقصر .. ((وهكذا تصبح كل النظريات والتاريخ والتطور غير ذات فائدة ، وسخيفة ، لان الفلاح لا يفهمها ولا يطلبها ، والفلاح اقوى مناء ويملك قوى ابقى على الزمن))هكذا تكلم تولستوي العملاق .

وعلينا – في نفس الوقت مرة ثانية – ان نقوم بتيسير الكتابة ، وتيسير النحو ، فنحن بين اثنتين،كما يقول طه حسين ((اما ان نيسر علوم اللغة لتحيا ،واما ان نحتفظ بها كما هي لتموت)) .

وفي مرحلة الانتقال التي نرجو الا تطول ، يجب الا ترهبنا الكلمات العامية ، او نتردد امامها ، طالما اننا نحس بها ، ولا نجد مقابلا لها في الفصحى الا بعد التضحية بحرفية الاحساس أو بحرارته. علينا ان نضع الحرف الذي انفعلنا به سواء في السرد او في الحوار .

محمد محمود عبد الرازق
حلوان